مفهوم الاستعارة في ضوء النقد المعرفي

The concept of metaphor in the light of cognitive criticism

فريدة ساعي*

د. سليمة مسعودي♣

تاريخ الإرسال: 2022/02/07	تاريخ القبول: 2022/05/18	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

لقد حاولنا من خلال هذا البحث أن نقدم صورة موجزة عن تصور الاستعارة في حقل النقد المعرفي، ذلك أن الحاجة تبدو ملحة إلى إعادة قراءة الاستعارة من منظور جديد بعيدا عن النظرة التقليدية التي جعلت منها مبحثا زخرفيا وجماليا إلى رؤية أوسع تتجسد في أذهاننا وممارساتنا اليومية قبل وجودها اللغوي، فقد أضحت الاستعارة ظاهرة ذهنية تلعب دورا مركزيا في تجسيد المعرفة، وتعد أيضا تلبية لمقتضيات المرحلة الفكرية الراهنة، ولها أهمية كبيرة لما تنطوي عليه من وظائف تكسب المعنى قيمة جمالية إلى جانب قيمتها التعبيرية؛ فهي أميرة الوجوه البلاغية ومستقبل الدراسات النقدية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة؛ النقد المعرفي؛ النظرة التقليدية؛ البلاغة؛ المعرفة.

Abstract:

Through this research, we have tried to provide a brief picture of the perception of metaphor in the field of cognitive criticism, as the need seems urgent to reread the metaphor from a new perspective away from the traditional view that has made it a decorative and aesthetic research into a broader vision embodied in our minds and daily practices before its linguistic existence, it has become a mental phenomenon that plays a central role in the embodiment of knowledge, is also a meeting of the requirements of the current intellectual phase, and is of great importance to the functions involved in Meaning earns aesthetic value along with its expressive value; it

* مخبر الشعرية، جامعة الحاج لخضر باتنة1 farida.sai@univ-batna.dz

♣ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة الحاج لخضر باتنة 1 salima.messaudi@univ-batna.dz

is the princess of rhetorical faces and the future of contemporary critical studies.

***Key words**: Metaphor; cognitive criticism; traditional outlook; rhetoric; knowledge.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: فريدة ساعي farida.sai@univ-batna.dz

1. مقدمة:

شكلت الاستعارة منذ القدم مكونا مهما من مكونات العملية التواصلية الإنسانية، فهي المكون الذي يجتمع فيه التخييل باللغة بالمطالب الفكرية الواسعة للإنسان، ما جعل منها أداة حية في خطابات العلوم المختلفة، وهو ما خول لها أن تدخل مجال البحث من أوسع أبوابه، لا على مستوى العلوم اللغوية والإنسانية وحدها؛ بل على مستوى البلاغة والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والنقد بمختلف مناهجه وتوجهاته، فمنذ جهود اليونان والعلماء المسلمين في سيرورة دائمة محاولين اكتشاف وتطوير مباحث الاستعارة في كل المجالات، ولم يتوانوْ لحظة في سبيل تحقيق مطلبهم، إلى غاية وقتنا هذا الذي شهد مزيدا من الاهتمام البحثي بالاستعارة، بفرض من اتساع مجالات توظيفها، فتمدد المعرفة والتطور الحضاري يزيدان الحاجة إليها وهو ما جعل منها موضوعا مهما لعلوم شتى، ووفقا لذلك تأسس بحثنا حول موضوع الاستعارة والنقد المعرفي بغية الرد على الإدعاء القائل بأن الاستعارة مجرد صورة بيانية، ظلت رهينة الأداء الأدبي الراقي في نماذجه المعروفة وفقط، وهذا مفهوم قاصر ومحدود الغاية والمبتغى فالاستعارة لم تقف عند حدود استبدال كلمة مكان كلمة أخرى فقط، بل تجاوزت بأهميتها حدود البلاغة إلى علوم أخرى كثيرة؛ كعلم النفس والمنطق وعلم الاجتماع والتربية والفلسفة وعلم الأعصاب، وصولا إلى النقد المعرفي، وذلك عبر انفتاح تشكيلاتها الاستعارية لتتحول إلى كيانات معرفية وجمالية في الوقت نفسه.

ومن خلال هذا التقديم يمكننا طرح بعض التساؤلات التي ستسمح لنا بإزالة بعض اللبس والغموض عن موضوع البحث وهي كالآتي: ما مفهوم الاستعارة؟ وما مفهوم

المعرفة والنقد المعرفي؟ وكيف استفادت الاستعارة في بنائها من تخوم ومعارف ومجالات النقد المعرفي؟ فدراستنا ستقوم على تتبع المفاهيم والتصورات العقلية الخاصة ببناء الاستعارة.

ووفقا لهذا ارتأينا أن تكون فرضيات البحث كالآتي:

1.الاستعارة أحد أهم المباحث البلاغية التي تجلب انتباه الباحثين إليها، على اختلاف مشاربهم رغم ما عرفته العلوم اللغوية من تطور، ووفقا لذلك أضحت ذا أهمية كبيرة لاسيما في الدراسات النقدية فأدخلت في حقل علم النفس، وارتبطت بالقارئ ومستويات التأويل، وعلم الأسلوب والسيمياء والتفكيك، ونحن نفترض أنه لم يتحقق لها ذلك إلا في عناية العلم المعرفي الذي ساهم في نقلها من النظرة المجازية الكلاسيكية إلى كونها ظاهرة ذهنية تلعب دورا مركزيا في تجسيد المعرفة.

2.الاستعارة تعتبر آلية مركزية تعتمد في آلياتها على الذهن والأداء المعرفي الخاص بالكائن البشري وليست مجرد ظاهرة لغوية غرضها التزيين والتجميل لا غير، بل هدفها الأساسي بناء المعنى وتأويله.

وبناء على ذلك كان الهدف الأسمى من البحث هو إعادة النظر في طبيعة الاستعارة، وكذا إبراز دورها المعرفي ضمن حقل النقد المعرفي، على اعتبار أن العلم الاستعاري لم يستثر إلا في عناية العلم المعرفي، وساهم في نقل الاستعارة من النظرة المجازية الكلاسيكية إلى عالم أوسع وأرحب بعيدا عن النظرة التقليدية للاستعارة، فالبحث محاولة جدية لإعادة رسم الخارطة المعرفية للاستعارة من زاوية ومنظور النقد المعرفي، وذلك من خلال إقامة جسر أو حبل تواصل بين البحث البلاغي والبحث المعرفي، لرصد وتأصيل المعرفة بنوعيها اللغوية والمعرفية للوقوف على خصوصيات الاستعارة في كلا الحقلين قديما وحديثا، وكذا محاولة منا لاكتشاف كنه الاستعارة والوقوف على أبعادها ومحاولة فهمها وتقويمها وكذا لفتح آفاق جديدة في البحث .

وبتضافر هذه الجهود تم العزم على جمع مادة البحث وتوزيعها فيما بعد على منهجية ستشمل مقدمة وهي تمهيد عام حول الموضوع، ومتن يشتمل على إضاءات

بسيطة تتمحور حول موضوع الاستعارة في النقدين العربي والغربي، ثم بعد ذلك نتطرق إلى مفهوم المعرفة، والنقد المعرفي وأهم رواده ومصطلحاته بعدها نتطرق إلى تصور الاستعارة في حقل النقد المعرفي، وأخيرا خاتمة وهي حوصلة عامة حول الموضوع المدروس.

كما أننا سنستعين بآليتي الوصف والتحليل مع الاعتماد على المنهج التاريخي لرصد وتتبع بناء الاستعارة في حقلي النقد العربي والغربي قديما وحديثا وكذا حقل النقد المعرفي.

وقبل الخوض في لب هذه المغامرة، نرى أنه من الضرورة بمكان إيجاد ماهية للاستعارة، وكذا التعريف بحقل النقد المعرفي ومصطلحاته وآليات اشتغاله، بعدها نتطرق إلى عنصر الاستعارة في حقل النقد المعرفي.

2.الاستعارة بين المفهوم والنشأة:

1.2. مفهوم الاستعارة:

لا يشرع بحث ما ببدء علمي منظم ما لم تكن هناك محاولة واضحة لتحديد مفاهيم المصطلحات العلمية الواردة فيه، وهذا ما سنحاول تحقيقه إن شاء الله في هذه الأسطر القليلة.

ورد مفهوم الاستعارة في المعاجم العربية القديمة بمعنى الأخذ والعطاء ومرد ذلك إلى معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة عَيَرَ:"يتعاورون، يأخذون، ويعطون"[1]، وبمعنى الرد والاستقبال في كتاب تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي في قوله:"الاستعارة اسم مشتق من الفعل(عور) مأخوذة من العارة، وما تداولوه بينهم، وقد أعاره الشيء وأعاره منه وعاوره إياه، والمعاورة والتعاور؛ شبه المداولة، والتداول في الشيء يكون بين اثنين"[2]،بالإضافة إلى مصطلحات الأخذ والاستبدال نجد معنى التداول، وهو مصطلح مرتبط بالانتشار والتوسع والانفتاح على العديد من العلوم المختلفة وهذا هو جوهر النقد المعرفي.

هذا من الناحية اللغوية أما من الناحية الاصطلاحية فقد عدت الاستعارة أحد أهم المباحث البلاغية والنقدية، واختلفت مفاهيمها حسب المجال المراد دراستها فيه، ومن خلال ذلك أصبحت محط أنظار العديد من التوجهات والتخصصات على اعتبارها دعامة أساسية في الخطاب الأدبي، وقد وردت العديد من التعريفات الخاصة بها، وكان أشهرها أنها تشبيه حذف أحد طرفيه:"فالاستعارة أو اللفظ المستعار تشبيه حذف وجهه وأداته وأحد طرفيه نحو: استمطرت من عينيها لؤلؤا أي دمعا كاللؤلؤ في شكله ولونه وصفاته، وهي بذلك على ثلاث أركان أساسية هي: المستعار له وهو المشبه، والمستعار منه وهو المشبه به، ويسميان طرفي الاستعارة والجامع بينهما هو وجه الشبه، وتكون إما حسية أو عقلية"[3]، كان هذا أهم تعريف للاستعارة المتداول بين النقاد والباحثين، فالاستعارة نوع من أنواع المجاز اللغوي ومن علوم البلاغة المتعلقة بعلم البيان وهي استعمال كلمة أو معنى في غير ما وضعت له، أو هي تشبيه حذف أحد أركانه، تتكون من المستعار له وهو المشبه، والمستعار منه وهو المشبه به والمستعار وهو اللغة أو وجه الشبه.

2.2 .تاريخ الاستعارة بين البلاغة والنقد الأدبي قديما وحديثا:

إن أصول الاستعارة_وبوادرها الأولى بدأت مع أرسطو من خلال كتابيه فن الشعر والخطابة وذلك في قوله :"إن أعظم شيء هو القدرة على صياغة استعارات جديدة؛ يعني القدرة على رؤية التشابهات"[4]، فقد عدها أمرا خارجيا يشكل ماهية الخطاب الشعري والنثري وتنهض بوظيفة شكلية تحسينية، فتصوره لا يخرج من إطار النظرية الاستبدالية التي تقوم على نقل اسم شيء إلى شيء آخر، وحذا حذوه لونجينيوس Longinus الذي اعتبر الاستعارة:"ضرب من المهارة في إبداع الصورة وأحد مصادر الرفعة الأسلوبية"[5]، فهي إذا من أهم الضروريات الجمالية وفق تصور النظرية الاستبدالية.

هذا في الساحة الغربية أما في الدراسات العربية القديمة نجد العديد من النقاد والبلاغيين الذين تحدثوا عن أصول وبوادر الاستعارة، وذلك استنادا إلى غنى وتنوع النتاج البلاغي والنقدي العربي القديم، فهذا أبو هلال العسكري يعرفها بقوله:"هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره"[6]، فالاستعارة في القديم اعتمدت أسلوب النقل والاستبدال، ويتقارب هذا المفهوم مع تعريف الرماني الذي عرفها

بقوله:"هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل والإبانة"[7]، وأبو العباس ثعلب رأى أن الاستعارة هو أن:"يستعار لشيء اسم غيره أو معنى سواه"[8]،ومعنى ذلك أن ثعلب حدد من خلال تعريفه أنواع الاستعارة التي تكون إما في الاسم أو المعنى؛ أي أننا نستعير من الشيء إما إسما أو معنا.

أما القاضي الجرجاني فرأى أن الاستعارة هي:"ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها"[9]، فهي تقوم كلها على النظرة التقليدية للاستعارة القائلة بفكرة استبدال كلمة بكلمة أخرى أو لفظ مكان لفظ آخر لغرض التزيين والتجميل أو للزخرفة اللفظية هذا عن الرؤية الاستبدالية، أما عن الرؤية التفاعلية فرأت أن الاستعارة ليست مجرد زينة لفظية أو زخرفية للكلام كما أنها ليست حكرا فقط على النص الأدبي، بل هي وسيلة لفهم العالم والتعمق فيه.

إن الاستعارة أحد أهم المباحث البلاغية واللغوية، وتحصيلها من الصعوبة بمكان فهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته، ومن جاء بعد أرسطو والنقاد العرب لم ينظروا لها على أنها بمفردها تشكل معنى أو محسنا لفظيا، فهي بهذا المفهوم لا تستطيع أن تأخذ دلالتها التأويليةالكاملة خاصة مع الجملة والنص الأدبي، فهي ليست مجرد تشبيه جميل حذف أحد طرفيه وفقط بل:"هي خلق وإبداع يظهر العالم الذي يعيش فيه الشاعر أو الروائي والعالم الذي يطمح إليه في مصنفه الفني"[10].

أما في الدوائر الغربية الحديثة فقد اختلفت التوجهات والأطر المعرفية التي نظرت إليها كل من زاوية نظره وتوجهه، وتحدث عنها العديد من النقاد ك: سورل(Sorel) وفونطاني(fontanien) و جان كوهين(jean Cohen) و ريتشاردز(richards) وماكس بلاك (max Planck) وأورتيفا (ortiva) وغيرهم كثير الذين أفضوا بدلوهم حول هذا الموضوع، فـأورتيفا مثلا عد الاستعارة الأداة الذهنية التي لا غنى عنها في التفكير العلمي، وقارن بين وجودها العلمي ووجودها الفني والأدبي، وقال بأن الشعري الأدبي هو استعاري والعلم يستخدمها لا غير ، فالاستعارة وفق رؤيته أداة ذهنية نصل بواسطتها إلى ما هو أبعد من كفاءتنا، فهي تتصل بالمفهوم الذهني كما وأنها أداة الابتكار والقوة الأكثر خصوبة التي يمتلكها الإنسان.

وبالإضافة إلى ذلك نجد جان كوهن يشير إلى أن هناك معنيين للاستعارة:"معنى خاص وهو الذي تكون فيه العلاقة بين المدلول الأول والثاني هي المشابهة، ومعنى عام يشمل مختلف أشكال التغيير الدلالي بصرف النظر عن طبيعة العلاقة التي تجمع بين طرفي الاستعارة، ومع ذلك فهناك استعمال شائع للاستعارة بحيث يشير إلى جنس(صورة تغيير المعنى)، ونحن نستعمل الاستعارة بهذا المعنى"[11]، فقد طرح جان كوهن معنيين مختلفين للاستعارة الأول مرتبط بالمشابهة التي تكون بين مدلول أول ومدلول ثان، أما المعنى الثاني فيشمل مختلف أنواع التغيير الدلالي بغض النظر عن العلاقة بين طرفي الاستعارة، أما أرشيبال ماكليش Archibald يرى أن الاستعارة ضرب من المجاز تتميز بنقل الاسم أو التعبير الوصفي إلى شيء لا يطابقه كل المطابقة وعلى هذا الأساس فإن الاستعارة"تمثل العلاقة المتوترة بين أطراف متفاعلة، وهي تظل كذلك ما دامت تستمد حياتها من السياق، ومادامت تقدم موضوعها _دوما_من خلال منظور متجدد، وتجعلنا ندركه من خلال انطباع جديد"[12] وبناء على ذلك فإن الاستعارة تلعب دورا فعالا في السياق عن طريق توسيع أفقها من أجل تقديم دلالات جديدة، كما أن زميله **bain** يرى كذلك أن "الاستعارة هي مقارنة متضمنة في استعمال المصطلح ولا بد من النظر إلى فوائد الاستعارة وإلى أخطارها وسوء استعمالها"[13].

هذا عن الاستعارة في الحقل الغربي، أما بخصوص النقد العربي الحديث فهناك العديد من النقاد العرب الذين اهتموا بالاستعارة من أشهرهم: محمد بازي في كتابه:"البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة"، الذي أكد على فاعلية المقترح الاستعاري الذي قدمه، وعلى ضرورة توسيع المبدأ الاستعاري، وقام بدراسة الاستعارة في النصوص الأدبية وغير الأدبية، في العالم الافتراضي والواقعي، واقترح نموذجا آخر للاستعارة بعنوان الاستعارة المنوالية كطرف ثالث من الاستعارة البلاغية والاستعارة التصويرية عند جورج لايكوف، فالاستعارة المنوالية هي:"مجموع أفعال الكتابة الصناعية من تخيل، وتخير، ومحاكاة، واقتباس، وأخذ وتجاذب بين الخطاب قيد الإنجاز، وبين مجموع المرجعيات الممكنة التي يستعين بها منتجوه، فالكتابة_مثلا_فعل استعاري في مجمله؛ إذ بمجرد ما يشرع الكاتب في نظم خطابه، فإنه يدخل في حالة استعارية مفتوحة الجهات، بدءا من الاستعارة المعجمية العادية، حيث يستعير كلمات معينة

لخطابه من المعجم اللغوي، فالكلمات في المعجم تظل على الدوام قابلة لاستعارات محتملة، وليس استعمال اللغة إلا استعارة لغوية مألوفة قائمة على الاختيار والاستبدال، ذلك أن اللغة ليست ملكا لأحد، ولا أحد يملك لغة كاملة خاصة به، وإنما سيمياء عامة قابلة للاستعمال والتقاسم"[14]،فالاستعارة وفق تصور محمد البازي لم تعد حكرا على اللغة فقط بل تتعداه إلى مجالات أخرى تشمل كل مناحي الحياة، فقد حاول بذلك إنعاش الاستعارة بمقترحات جديدة مواكبة للعصر المعاصر، من خلال الجمع بين القديم والجديد لبناء تصور موسع.

وإلى جانب محمد البازي نجد العديد من الرواد العرب الذين كتبوا بحوثا مستفيضة حول الاستعارة كتوفيق فائزي في كتابه: "الاستعارة والنص الفلسفي"، وعبد الله الحراصي في كتابه:"دراسات في الاستعارة المفهومية"، ومحمد العمري، ومحمد مشبال في كتابه:"البلاغة والخطاب"، والناقد يوسف أبو العدوس في كتابيه: التشبيه والاستعارة من منظور مستأنف، وكذا الاستعارة في النقد الأدبي الحديث؛ الذي قسم فيه الاستعارة وفق مجموعة نظريات: أهمها النظرية المعرفية، والاستعارة من منظور النظرية السياقية، والنظرية التفاعلية، ولكل نظرية وجهة نظر خاصة بها.

3 . الاستعارة والنقد المعرفي:

3. 1.النقد المعرفي:

إن الحديث عن الاستعارة في حقل النقد المعرفي يتطلب منا أن نتعرف على ماهيته وطبيعة وجوده، ويتحدد هذا الإطار خاصة فيما يسمى ب: العلم المعرفي،فما مفهوم النقد المعرفي؟ وما موقع الاستعارة ضمنه؟.

لقد ارتبط النقد المعرفي بالمعرفة والتي اعتبرت بدورها نشاطا ذهنيا و فكريا ارتبط بذهنية وبتفكير الإنسان، وارتبطت أيضا بعمليات الإدارك والتذكر والاستيعاب، ثم إنها لم تقتصر على الأدب فقط، بل انفتحت على عدة مجالات كالفلسفة وعلم النفس والطب والبيولوجيا، وتعد الأساس الذي يحكم النشاط الإنساني، هذا عن المعرفة أما النقد المعرفي فهو اتجاه أو آلية أو استراتيجية يوظف منجزات علم النفس المعرفي، واللغويات المعرفية، والعلوم المعرفية بشكل عام للوصول إلى الوعي الإنساني،

الذي يقبع في أعماق النص الأدبي، وهدفه كشف المضمر والخفي المتواري وراء الجوانب الجمالية، فهو نقد يهتم بدراسة طريقة تفكير الإنسان، وكذا دراسة المضمر المتواري خلف الجوانب الجمالية الموجودة في النص الأدبي.

وقد عد النقد المعرفي قفزة نوعية في تاريخ النقد الأدبي بصفة عامة، ظهر مع مارك ترنر(mark Turner)، وجورج لايكوف (lak off George)، وبيتر سوتوكويل (Peter stockell)، واعتبر توجها معرفيا في النقد المعاصر وعمل على العمل بالمنتجات النقدية المعرفية بدل القول بإلغائها، ويعتبر تجسيدا لفعل الشمولية الذي شمل جل المعارف الإنسانية والعلمية، واستفاد من جل النظريات النقدية والفلسفية والمعرفية؛"فهو العملية العقلية المستوحاة مفاهيمها من فروع علم النفس، والاجتماع المعرفي، ونظرية المعرفة والمنطق، والرياضيات واللسانيات، والسيميائيات، ونظرية التلقي وفلسفة الذهن وعلوم العصر، والتي يتم عن طريقها التعرف على الموضوع المدرك لتفهم التشكيل المعرفي المتجلي في النص الإبداعي من قبل الذات العارفة للوصول لحقيقة الشيء أو المحكي المحرر من كل عرضية ظرفية أو واقعية"[15]، فقد أخذ مفاهيمه من علوم شتى من علم النفس والاجتماع والفلسفة والنقد بمختلف توجهاته وتفرعاته، فهو دعوة لحوار النقود المتنوعة، شمل النقد الأدبي واستوعب النقد النفسي والاجتماعي والتاريخي، واعتبر مشروعا كاملا بمنهجيته الشمولية ومسارا لتحليل النصوص والكشف عن خفاياها، حيث يرى محمد مفتاح أنه و :"على غرار الدلالة المعرفية، وعلم النفس المعرفي والأنثربولوجيا المعرفية، سيكون سداه ولحمته مفاهيم مستوحاة من المنطق والرياضيات واللسانيات والسيميائيات، والعلوم المعرفية، وفلسفة الذهن وهي كما يدرك حكماء هذه الأمة علوم هذا العصر"[16]، بالاضافة إلى العلوم المختلفة أضاف محمد مفتاح المنطق والرياضيات وفلسفة الذهن فالنقد المعرفي شمولي يتسع ليشمل جل العلوم المختلفة.

وَعُرف النقد المعرفي أيضا على أساس أنه مصطلح له مجموعة من التوجهات العلمية والمعرفية الكثيرة والمتنوعة، يجمع في طياته العديد من المعارف بشموليتها المنهجية والعلمية والمعرفية والذهنية، فهو ينحو منحى شموليا معرفيا خوله رسم

الخارطة المعرفية لأي توجه علمي أو أدبي، خاصة العلوم الإنسانية كونها تقترض من بعضها البعض الكثير من الأشياء والعلوم المتعددة، فهو نقد نهل مفاهيمه من علم النفس والفلسفة والذكاء الاصطناعي وعلم الأعصاب والإعلام...وغيرها من العلوم المختلفة.

وهو من المصطلحات التي يصعب تحديدها بدقة ومن المصطلحات التي لها علاقة وثيقة بالمعطيات الحضارية من جهة المعرفة، إنه مصطلح له توجهه العلمي ويتجه نحو التناول الشمولي في وظيفته ومهمته، فهو ينزع إلى الشمولية وسمي بعدة مصطلحات مختلفة منها:

النقد الفقهي، النقد المنطقي، النقد العقلاني، النقد العلمي، النقد المنهجي، والنقد الثقافي المعرفي، طبعا هي مصطلحات ترجمت من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وهذا ما يسمى بالتثاقف أو المثاقفة، فالنقد المعرفي مثله مثل غيره من المناهج النقدية انتقل إلى الساحة العربية عن طريق الترجمة والتأليف والتلقي؛ وكلها مصطلحات لمدلول واحد هو النقد المعرفي الذي شمل التقنيات الأدبية والفنية والوسائل غير الأدبية الخارجة عنه كالصورة والفن والموسيقى والعلوم المختلفة وذلك في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب، فهو نقد يستفيد من كل العلوم والتوجهات المختلفة ليوظفها في النص الأدبي، وليقدم معرفة يستنبطها من دهاليز النصوص ومضامينها ومغلقاتها الفلسفية أو الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية والسياسية...، كما أن اهتمامه الأقصى البحث عن كيفيات التفكير الذهنية المختلفة، فهو دراسة لطريقة تفكير الإنسان وسلوكاته، ومن أشد الصدف تقاربا أن الاستعارة آلية من الآليات المركزية لاشتغال الذهن عند كل البشر، وهذا ما أتاح لها فرصة التعمق في هذا البحر وسنأتي لذكر رؤية النقد المعرفي للاستعارة في الأسطر القليلة القادمة.

3. 2 رؤية النقد المعرفي للاستعارة:

بالنظر إلى المكتبات العربية نجد أن الأبحاث حول الاستعارة قليلة جدا، بل لا يكاد يتم العثور عليها حتى لا نقول أنها منعدمة، وذلك بسبب عدم الاهتمام بهذا المجال خاصة، وكذا نجد أن نظرتهم للاستعارة لا تعدو مجرد تشبيه حذف أحد طرفيه وكفى

بالله حسيبا، لكن أصحاب هذه النظرة مخطئون أشد الخطأ، وذلك لعدم معرفتهم بالمكانة الهامة والرئيسة لهذا العنصر في الأدب بصفة عامة وفي حياتنا اليومية بصفة خاصة، وهذا ما نادى به توجه النقد المعرفي أو حقل العلم المعرفي أو النظرية المعرفية، فقد تجاوزت الاستعارة بهذا المفهومَ التقليدي لها واتجهت إلى عالم أوسع، فدخلت حقل السيمياء وعلم النفس والأسلوبية والبنيوية والحقول التأويلية إلى الحقول المعرفية، وهذا ما بوأها مكانة خاصة في عصرنا المعاصر، وأصبحت بذلك أحد أهم المباحث اللغوية والنقدية خاصة التي أثارت وما تزال تثير وتستقطب انتباه الباحثين والدارسين إليها.

ثم إن الخوض في موضوع الاستعارة من الصعوبة بمكان فهي تخضع للحظة القلق المعرفي والمساءلة التاريخية وتشكل صعوبة في تحسس طرق الإبداع، بسبب الدور الذي تلعبه في نقل المعاني واستخراج الجماليات من شتى العلوم المعرفية، ووفقا لهذا أتى النقد المعرفي ليشكل لنا مشروعا نقديا مصححا لمسار الاستعارة ناقلا إياها من النظريات الاستبدالية الكلاسيكية إلى مجال أوسع وأرحب إلى مجال العلوم المعرفية.

إن العلم الاستعاري لم يستثر إلا في عناية العلم المعرفي منذ نشأته في الخمسنيات من القرن الماضي، إذ ساهم في نقل الاستعارة من النظرة المجازية الكلاسيكية إلى عالم العلوم البينية، كما أن التنظير المعرفي لها نشأ مع اللسانيات المعرفية التي نظرت لها بوصفها:"ظاهرة ذهنية تلعب دورا مركزيا في المعرفة"[17]، واعتبرتها:"آلية مركزية من آليات التفكير البشري ككل وأوكلت إليها دورا رئيسيا في التجربة وبناء المعنى وفهمه وتأويله، بوصفه نشاطا ذهنيا بين المتخاطبين"[18].

بعيدا عن النظرة التقليدية للاستعارة، وفي خضم وجودها في حقل النقد المعرفي أصبح يطلق عليها **بالرؤية اللسانية المعرفية للاستعارة؛ أو ما يسمى بالاستعارة الإدراكية أو التصويرية**؛ ومن ثم أصبح التصور الاستعاري "في البحث المعرفي يبين بوصفه جزءا من الفهم البشري وليس مجرد متغيرات لغوية، فهو ينطلق من الطريقة التي يفهم البشر بها تجاربهم"[19]، ويضفي جانبا خياليا ومعرفيا عن طريق"تزويدنا بفهم جديد لتجربتنا، فيضاف للتصور الاستعاري قوة في خلق الحقيقة وإبداعها بل إن إبداع

التصورات في نسقنا التصوري عبر الاستعارة قد يغير ما هو حقيقي عندنا، ويؤثر في كيفية إدراكنا للعالم"[20]، فالاستعارة تحكم تجاربنا الحياتية ذات الطبيعة التصورية، وتقوم على الاعتماد على الذهن في إدراك ما حولنا، ولقد تحدى جورج لايكوف الرؤية المترسخة للاستعارة وقال بأن[21]:

1. الاستعارة خاصية للتصورات وليست للكلمات.
2. وظيفة الاستعارة فهم أفضل لبعض التصورات وليس فقط لأغراض فنية وجمالية معينة.
3. لا تتأسس الاستعارة في الغالب على المشابهة.
4. يستخدم الناس العاديون الاستعارة دون جهد في حياتهم اليومية، فالأمر يتعلق بالموهوبين موهبة خاصة وفقط.
5. الاستعارة بعيدا عن كونها شيئا زائدا برغم الزخرفة اللغوية التي تمنحها؛ هي عملية حتمية للتفكير والعقل البشريين.

من خلال العناصر التي ذكرها الناقد نستطيع القول بأن الاستعارة ومنذ دخولها حقل النقد المعرفي ارتبطت أكثر بالتصورات الذهنية والفكرية، ولم تقتصر على الجانب الجمالي فقط، بل تعدته إلى الجانب المعرفي أيضا، فأصبحت تتجلى في الكلام العادي وفي المحادثات اليومية العادية وفي سلوكاتنا وأفكارنا، "ثم إن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكاتنا وانفعالاتنا استعاري من حيث طبيعته، وإذا كان الأمر كذلك فإن نسقنا التصوري يكون مبنيا جزئيا بواسطة الاستعارة، وبهذا لن تكون الاستعارة تعابير مشتقة من حقائق أصلية بل تكون هي نفسها عبارة عن حقائق بصدد الفكر البشري والنسق التصوري البشري"[22]، فقد أصبحت متعلقة في الدرجة الأولى بثقافة الفرد الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها، كما عدت ألصق بسلوكاته وتجاربه الحياتية.

فالاستعارة في ضوء النقد المعرفي لم ترتبط فقط باللغة أو بالألفاظ، إنما"ارتبطت بالنسق التصوري للتفكير البشري والسلوك الإنساني الذي يعد في جزء كبير منه ذا طبيعة استعارية، ولهذا فإن الاستعارة تشمل اللغة العادية واللغة التخييلية

الإبداعية"[23]، فالاستعارة وفق هذا التوجه قائمة على مبدأ النسقية الذي يفتح الاستعارة على آفاق أخرى تسمح لها بالخروج من أفق اللغة، لتشمل الجانب التخييلي الإبداعي أيضا لتصبح وفق هذا التصور أسلوبا للمعرفة.

وقد رأى الناقد جورج لايكوف أيضا وهو من أهم رواد النقد المعرفي بأن الاستعارة وموقعها ليس في اللغة فقط بل في"الكيفية التي نفهم بها مجال ذهني ما وفقا لمجال آخر، فالنظرية في مثل هذه الترسيمات العابرة المجالات، وفي مسار العملية تبدي أيضا أن مفاهيم يومية مجردة مثل الزمن والأوضاع والتغير والسببية والغرض هي مفاهيم استعارية، وأن دراسة الاستعارة الأدبية هي امتداد لدراسة الاستعارة اليومية"[24]. فقد اعتبر الناقد الاستعارة من الأمور التي نحيا بها كالهواء والماء، وهذا انقلاب تام على الفكر التقليدي.

فقد اعتبر النقد المعرفي الاستعارة طريقة حياة وطريقة للتفكير في آن واحد، حيث لم تعد لصيقة باللغة ومن ممتلكات الأدب فقط، بل عدت ألصق بحياة الإنسان على حد تعبير الباحث، فالموقف النقدي لا يتحقق إلا في ظل معرفة جديدة تتجاوز القديم وتبين ما فيه من عناصر قابلة للنمو والإبتكار، وقد عد لايكوف الاستعارة الآلية الرئيسيةالتي تستوعب التصورات المجردة، وقال أن الكثير من الموضوعات المعاشة تُحل عن طريق الاستعارة، فالاستعارة حسب رؤيته تصورية وليست لغوية، وفي هذا السياق يرى كلا الناقدين: جورج لايكوف وجونسون بأن: "الاستعارة بالنسبة لعدد كبير من الناس تمثل أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي، إنها تتعلق في نظرهم بالاستعمالات اللغوية غير العادية وليس بالاستعمالات العادية، وعلاوة على ذلك يعتقد الناس أن الاستعارة خاصية لغوية تنصب على الألفاظ أو الأنشطة، ولهذا يظن أغلب الناس أنه بالإمكان الاستغناء عنها دون جهد كبير، وعلى العكس من ذلك فقد انتهينا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، إنها ليست مقتصرة على اللغة بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا، فالنسق الذي يسير تفكيرنا له طبيعة استعارية أساسية"[25].

ثم إن الناقد وفي ضوء دراسة الاستعارة ضمن حقل النقد الأدبي، أطلق عليها تسمية **الاستعارة التصويرية**، ومن خلال هذا المصطلح بين لنا أن الاستعارة قبل أن تكون لغوية أو سلوكية فهي موجودة في الفكر اليومي أو تسعى إلى بناء المعنى وتأويله، وترتكز بصفة خاصة على مفهوم المعرفة.

إذا فالاستعارة في حقل النقد المعرفي هي أحد أهم المظاهر الذهنية التي تعكسها اللغة، ويقوم الباحث المعرفي فيها بدراسة المظاهر الذهنية والفكرية من خلال الجوانب اللغوية بوصفها مرآة عاكسة لما يدور في الفكر، فالباحث يفكر ويبدع ويجسد أفكاره عن طريق اللغة، ومن ثم فمعظم استخداماتنا اللغوية في الحياة اليومية استعارية، وهكذا فالاستعارة لا تعنى بالجانب الجمالي فقط، بل يمكن أن نعتمدها كبناء تصوري تعبر عن الواقع الذي نعيشه، لتكون صورة فسيفسائية للتعاملات الإنسانية اليومية؛ فهي ليست حكرا على الأدباء والشعراء والفنانين فقط، بل هي موجودة عند الكبير كما الصغير، الأديب والعلمي، وهي مندسة في تفاصيل حياتنا اليومية وفي كلامنا العادي واليومي.

ووفقا لهذا الاتجاه وجدت العديد من الأنواع الاستعارية؛ منها ما تعلق بالاستعارة التجسيمية التي تتعلق بالحواس والعواطف الإنسانية، ونجد أيضا استعارة الحيوانات، والاستعارة المتحولة من المادية إلى المفردة، وكذا الاستعارات الإسمية والإسنادية وغيرها...، كل هذه الأنواع جمعها الناقد جورج لايكوف في ثلاثة أنواع تحت مسمى الاستعارة التصورية وقسمها إلى ثلاثة فروع: وهي الاستعارة البنيوية، والاستعارة الأنطولوجية، والاستعارة الاتجاهية؛ فالاستعارة الاتجاهية تبنى على بناء فضائي قائم على الاتجاهات مثل: أمام، فوق، تحت، وراء....،أما الاستعارة البنوية تعتبر آلية تُعتمد من أجل فهم مجال بمجال أكثر بناءً وتجريدا، وهي موجودة في نسقنا التجريبي الثقافي، وأخيرا الاستعارة الأنطولوجية التي تمنحنا القدرة على رؤية الأشياء والإحساسات على أنها كيانات قائمة بذاتها.

4. خاتمة:

توصلنا من خلال هذه الدراسة التي تحمل عنوان: "مفهوم الاستعارة في ضوء النقد المعرفي" إلى مجموعة من النتائج في حدود ما استطعنا إنجازه وأجملناها في النقاط التالية:

1. الاستعارة في اللغة أتت بمعنى الأخذ والرد والاستبدال، وكذا التداول الذي ارتبط بشكل مباشر بحقل النقد المعرفي الذي استقى آلياته ومفاهيمه الإجرائية من علوم إنسانية وتقنية كثيرة.
2. إن التعريف المتعارف عليه للاستعارة هو تشبيه حذف أحد طرفيه، وفق النظرية الاستبدالية عند كل من أرسطو ولونجنيوس وابن هلال العسكري والرماني في كتابه النكت في إعجاز القرآن الكريم، والقاضي الجرجاني، أما النظرية التفاعلية تجاوزت بمفهومها العام الاقتصار على الكلمة الواحدة إلى التفاعل مع المحيط الخارجي الذي يحيط بها، هدفها التشخيص والتجسيد والتخييل، أما النظرية السياقية رأت بأن الاستعارة عملية خلق جديدة في اللغة، فهي تبث حياة داخل الحياة التي تعرف أنماطها الرتابة والجمود، وتنظر للاستعارة بوصفها نموذجا لدمج السياقات.
3. النظرية المعرفية ارتبطت بحقول المعرفة وبالنشاط الذهني والفكري للإنسان، وارتبطت بعمليات الإدراك والتذكر والاستيعاب، وشملت العديد من المجالات في مختلف العلوم والتخصصات.
4. يعد النقد المعرفي آلية أو استراتيجية توظف منجزات علم النفس المعرفي، والعلوم المعرفية بمختلف تخصصاتها وفروعها العلمية والأدبية للتوصل لوعي الإنسان، هدفه كشف المضمر والمتواري وراء الجوانب الجمالية، ظهر مع ثلة من الباحثين أشهرهم جورج لايكوف ومارك جونسون ومارك ترنر وبيتر سوتوكويل، وله العديد من المصطلحات كالنقد العلمي والنقد الفقهي والنقد المنطقي والعقلاني والمنهجي، والنقد الثقافي المعرفي.
5. الاستعارة وفي خضم وجودها في النقد المعرفي ظهرت في حقل اللسانيات المعرفية وأطلق عليها بمصطلح الاستعارة الادراكية أو التصويرية؛ ورأى هذا الاتجاه أن

الاستعارة تعد طريقة حياة وطريقة تفكير في آن واحد، فأضحت لصيقة بحياتنا اليومية وبالتصورات الذهنية، إلى جانب كونها صورة بيانية تضفي جانبا خياليا ومعرفيا ولغويا في الوقت نفسه، وتحولت إلى صورة فسيفسائية تجسد التعاملات الإنسانية اليومية.

6. لا يختلف البناء الاستعاري في النظرية المعرفية عن باقي النظريات، حيث تتكون الاستعارة من مشبه ومشبه به ووجه الشبه، لكن ارتباطها بالنظرية المعرفية جعلها تتأسس وفق بعدين: البعد الأول مرتبط بالسياق ويحدد الانحرافات الكلامية داخل الجملة، والبعد الثاني يرتبط بتركيب الجملة ويحدد ارتباط كلمة بكلمة أخرى في بعدها التداولي والعاطفي والحياتي اليومي.

إن الاستعارة لم تقتصر على مفهومها التقليدي الذي عدها مجرد تشبيه حذف أحد طرفيه فقط، بل تجاوزت هذه الرؤيا وانفتحت على العديد من العلوم والمعارف المختلفة ولم تقتصر على النظريات البلاغية الاستبدالية فقط بل انفتحت على النظريات التفاعلية والسياقية والمعرفية والنفسية وغيرها من النظريات المختلفة.

وما زلنا نرى أن جوانب أخرى يمكن أن تسهم في إغناء مباحث الاستعارة وتعمل على الكشف عن بعض جوانبها وذلك من خلال دراستها من عدة جوانب مختلفة؛ ف إلى جانب موضوع الاستعارة والنقد المعرفي يمكن للباحثين الخوض في عدة مواضيع مختلفة تتمحور حول الاستعارة وفق مناهج نقدية مختلفة؛ فيمكن البحث في حقل الاستعارة والسيمياء مثلا، أو يستطيع الباحث التحدث عن علاقة الاستعارة بالتفكيكية، أو الاستعارة وعلم النفس، أو الاستعارة والنص الفلسفي وغيرها من المواضيع المختلفة التي أبرزتها الساحة النقدية المعاصرة.

*** *** ***

5. الهوامش:

[1] أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السمرائي، مكتبة الهلال، د.ط، بيروت، د.ت، مادة (عبر)، ج: 2، ص: 239.

[2] محمد مرتضى الحسن الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: حسن نصار، دار إحياء التراث العربي، د.ط، الكويت، 1947م، ج:1، ص: 163.

[3] كرم البستاني، البيان، مكتبة صادر يحاني،د.ط، بيروت، د.ت، ص: 65_66.

[4] ريتشاردز، فلسفة البلاغة، تر: ح سعيد الغانمي، د. ناصر حلاوي، الدار البيضاء، د.ط،المغرب، 2002م، ص: 91.

[5] عبد الجبار المطلب، مواقف في الأدب والنقد، وزارة الثقافة والإعلام، د.ط، بغداد، 1980م، ص: 133.

[6] أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: محمد البجاوي، المكتبة العصرية، ط:1، صيدا بيروت، 1986م، ص:268.

[7] الرماني، النكت في الإعجاز القرآني، تحقيق: محمد خلف الله، دار المعارف، ط:3، مصر،1986م، ص:86.

[8] أبو العباس ثعلب، قواعد الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط:2، القاهرة/مصر، 1995م، ص: 55.

[9] القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم علي محمد البجاوي، دار القلم، د.ط، بيروت،1966م، ص: 41.

[10] بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمه وقدمه: محمد الولي، مراجعة وتقديم: د.جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط:1،بيروت/لبنان،2016م ص:06.

[11] جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط: 1، المغرب، 1986م، ص: 109.

[12] أرشيبال ماكليش، الشعر والتجربة، تر: سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقضة العربية، د.ط، بيروت/لبنان، 1936م، ص: 96.

[13] Bain Alexander English com position and rhetoric London n:1887; p:159.
نقلا عن: يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث: الأبعاد المعرفية والجمالية، منشورات الأهلية العامة للنشر والتوزيع، ط: 1، عمان، 1997م، ص: 140.

[14] محمد بازي، البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان/ الرباط، كلمة النشر والتوزيع، ط:1، تونس / لبنان، 2017م، ص: 10.

[15] محمود خليف خضر الحياني، النقد المعرفي في النص الأدبي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط:1، الأردن، 2019م، ص: 14.

[16] محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم: النقد العربي و المثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:1، المغرب، 2000م، ص: 278.

[17] عمر بن عبد الرحمان، نظرية الاستعارة التصويرية والخطاب الأدبي، رؤية للنشر والتوزيع، ط:1، القاهرة، 2015م، ص:08.

[18] المرجع نفسه، ص: 10.

[19] وحيدة صاحب حسن، النقد الأدبي المعرفي المعاصر: الأصول. المرجعيات. المفاهيم، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد: 18، العدد: 3، سنة: 2018م.ص: 97.

[20] المرجع نفسه، ص: 97.

[21] يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، ص:70.

[22] جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط: 2، المغرب، 2009م، ص: 12.

[23] عبد العزيز لحويدق، نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية: من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط:1، عمان/الأردن، 2015م، ص:256_266.

[24] جورج لايكوف، النظرية المعاصرة للاستعارة، تر: طارق النعمان، مكتبة الإسكندرية، د.ط، مصر، 2014م، ص: 8.7.

[25] عبد الله الحراصي، دراسات في الاستعارات المفهومية، مؤسسة عمان للصحافة، ط:3، عمان، 2002م، ص: 21.